موقف لكفار بدر

ليت زعماءنا يتدبرونه !

للأستاذ عبد الحكيم عابدين

لا تكاد تنقضي أيام الصيام حتى تظلنا من رمضان أحفل ذكرياته بمواكب المجد ، وأغنى أيامه بمواقف البطولة ، وأوفر جوه الكظيم . ويكره الناس الشعر والشعراء ، وينفرون من مجرد رؤية الدواوين ، فضلا عما تحتويه من نظم !

° ° °

وما من شك أن قلة من البحوث وقلة من الروايات والقصص ، وقلة من الدواوين والقصائد ، قد أخرجت للناس في هذه الفترة وهي تستحق البقاء ، وتستحق الاستجابة ، وتستحق الانتباه

ولقد اتى معظمها ما يستحقه في نفوس الناس من تقدير وإقبال. والذي خانه الحظ فلم يعرف طريقه إلى الناس، إنما جنت عليه غفلة النقد في هذا البلد ، ومؤامرات النقابات والعصابات ، وسوء ظن القارئ بالطبعة والمجلة والنقد في هذه الأيام

ولو نهض المخلصون من النقاد ، ووجدوا من الصحافة الأدبية مشجعا لتطهير الجو من هذه الميكروبات السالبة فيه ، لاستطاعوا أن يستعيدوا ثقة القارئ بالنقد الأدبي ، تلك الثقة التي قضت عليها العصابات والأوكار !

وإني لأعتقد أن صفحات « الرسالة » لن تضيق بالنقد الحر المخلص ، إذا أقبل به أهله في جرأة وفي إخلاص

° ° °

ذلك نصيب الأدباء في جريمة قتل الأدب . فأما نصيب المدرسة ووزارة المعارف ، ونصيب الدولة كلها ممثلة في وزارة المالية ووزارة المواصلات ، فموعدي بها قريب إن شاء الله

سيد قطب

بحاليه إشراقا بصور الفداء والتضحية . وحسبك بذكرى (بدر) بلاغا إلى كل ما يصقل الروح من معاني العبرة ، وما تستشرف إليه النفس من جلال الفكرة . « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون »

بيد أني آخذ نفسي اليوم بنهج في تحليل جانب من الذكرى أرجو ألا يثير الانفراد به حفيظة أهل الرأي، وآمل ألا يسقب غرابة السبق إليه ازورار المتزمتين في تصور قداسة الدين . فحسبي — متى أخلصت القصد — أن أبوء بثاني الأجرين ، وما توفيقي إلا بالله

إني إذن مهيب بك أيها القارئ الأثير أن تشاطرني جولة في ربوع مكة وقد استنفرت صناديد قريش لقتال محمد صلوات الله عليه ، ثم تشيعني السير إلى رحاب القليب حيث تراءى الجمعان والتقى العسكران، وإنك لسابق حينئذ إلى استخراج منازل الفضل التي ندعو إليها زعماء اليوم — لا من معسكر الصحابة فذلك ما لا خلاف في روعته وجلاله ، بل من معسكر الكفر على ما عرف من بغيه وضلاله !

إي وربي لأقنعن زعماء العصر أن يقتدوا بما سجل التاريخ من رجولة كفار بدر ، ولهم إن فعلوا ثناء الناس وحمد التاريخ ، وأنا بهما زعيم. هذه قريش في البيض واليلب، قد هبت لثأر أبي سفيان حين استصرخها لنجدته ضمضم بن عمرو « يامعشر قريش اللطيمة ! اللطيمة ! إن أموالكم مع أبي سفيان قد أحاط بها محمد وأصحابه ، لا أظن أن تدركوها» ولكن قريشا لا تكاد تستكمل أهبتها للمسير حتى يوافيها أبو سفيان قد استطاع أن يفلت بمحاذاة الشاطئ فسلم من حصار محمد وسلمت لقريش التجارة والعروض ، وانقضت بذلك حاجة مكة إلى قتال المدينة . وهنا لا يقنع صناديد مكة المنابر وفتيان قريش الصيد بالاستجابة لداعي السلام ، بل « يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا» ويملي لهم شياطين الكفر ملوا واستكبارا ، فيأبون أن يضعوا اللامات ، أو ينزعوا العصابات ، حتى يبلغوا من القتال كما توهموا الإجهاز على محمد ودعوته ، ويفضوا من الحرب إلى إعلان مجد

قريش وعزتها « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم »

وتتداعى حماسة الثائرين إلى لواء زعيم الصلف والفظاظة أبي جهل فيصوغ مشاعرهم صرخات مرحشة « والله لا نرجع حتى نأتي بدرا فنقيم عليها ثلاثا ، نشرب الخمور ، وتنحر الجزور ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا وبمسيرنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبد الدهر »

بيد أن صوت العقل لا يضل طريقه وسط هذا الضجيج ، وكلمة الفصد والحكمة لا يحجبها عن الآذان سليل هذه البيض ، بل تنطلق قوية رزينة مسببة مفحمة على لسان صنديد قريش الأول وزعيمها المطاع عتبة بن ربيعة « يا قوم ما جاجتكم أن تلقوا محمداً غدا وقد سلمت لكم أموالكم ورد الله عليكم رجالكم ، إنكم إن لقيتموه فأصاب منكم وأصبتم منه لايزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قد قتل أباه أو ابن عمه أو ابن أخيه . يا قوم ما يضركم أن تدعوا محمدا والناس ، فإن أصيب بيد غيركم كان ذلك الذي أحببتم ، وإن كانت الأخرى لقيتموه غدا ولم تعدموا منه ما تريدون »

ويسترسل عتبة ، ومن ورائه جهابذة قريش وجلة أبطالها وحكامها ، كحكيم بن حزام وسهيل بن عمرو ، في استدراج قريش إلى وضع السلاح ، وإقناعهم بحقن الدماء ، في منطق تتساوق أدلته إلى الأفهام ، وأسلوب توشك حجيجه أن تؤثر في الصم الصلاب ، حتى يفضي إلى التمرض لحمل التبعة جميعا وينتهي استجابة لداعي العقل والحكمة — إلى التضحية بذكره في مجال الشجاعة وهو فارسها المجلي ، والنزول عن حظ نفسه من الثناء والشهرة ، وهي خير ما يحرص عليه صنديد عربي ، فيقول في ختام هذه الدعوة « يا قوم . اعصبوها اليوم برأسي وقولوا جبن عتبة وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم »

لقد كانت هذه الكلمات من سيد شجعان مكة وألمع أبطال قريش جديرة أن ترد السهام إلى كنائنها ، وتوسد السيوف بطون أغمادها ، وتلجم الضوامر الثائرة بشكائمها ، فتنساب في مكة هدأة الأمن ، وتنشاها من جديد طمأنينة السلام . ولكن العروبة قرينة العنف في حقها وباطلها ، وتربية الصحراء أليفة الثورة في إيمانها وكفرها

« لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا »

وهكذا غلب ضجيج الحماقة على صوت الحكمة ، وفتكت شرة الحرب بدعوة السلم فخرجت قريش بخيلها ورجلها تحاد الله وتكذب رسوله وتبغي في الأرض الفساد . وكذلك ساخ في ركام الزيف والغرور رأي عتبة على نضجه واستقامته ، وانجرف في غمرة التيار عتبة بن ربيعة على شرفه في القوم وزعامته ، ولم يدر إلا وقد فصلت الفيالق تجاه بدر ، وتيممت كتائب قريش القليب ! !

ترى ما عسى أن يصير إليه موقف عتبة وقد صدق عشيرته النصح فلم تنتصح ، وبخل لقومه مخزون الرأي فلم يرشدوا

هنا هنا موطن العبرة للساسة ، بل منزل القدوة للزعماء والقادة

هذا عتبة وقد أعمل رأيه على وساطته في قومه ، ووضوح السداد في دعوته ، لا يشغب على الجماعة ، ولا يأتي عملا أو قولا يضعف هيبتها أمام الأعداء

وهذا عتبة وقد انعقد إصرار الأمة على القتال ، لايجد لرأيه حقا على نفسه حتى في أن يأوي إلى الصمت والاعتزال

وهذا عتبة ينكر ذاته ، ويفنى وجوده في أمته ، فيأخذ أهبته لصبرة النضال

وهذا عتبة وقد اعتصب للحرب ، لا يدع ظلا من شبهة في أنه استكره على الخروج أو أحرج في اللقاء

بل هذا عتبة وقد جد الجد ، وشمرت عن ساقها الحرب ، يحتل مكان الصدارة بين القاتلين ، وقد كان بالأمس عدو القتال ، فيضرب المثل الرائع في إيثار الوحدة ، وفناء الفرد في الجماعة ، وإذابة الرأي الواحد وإن استقام وصفا ، في مشيئة الأمة متى تيممت وجهة أخرى

إي والله .. هذا عتبة يرى في طليعة الصفوف ، ويتوج هامته بعصابة الحرب ، ويجعل عن يمينه — في رأس الجيش كذلك — أخاه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، يوقدبهما شراوة الحرب الأولى ، ويعجل بنفسه وبهما غبار النقع في غزو بدر الكبرى

اسمعوا إليه أيها السادة الزعماء وهو يلقي القفاز في وجه

عصبة الحق ، ويتحدى كتائب الإيمان ، فيطالب الرسول صلوات الله عليه أن يجعلها مبارزة رجل برجل ! ! بل اسمعوا إليه وقد بدر فتيان الأنصار هذا التحدى ، وحفوا لالتقاط القفاز ، كيف يعرض عن قتالهم ويغلو فى الاعتداد بشرف قومه — وهم الذين أهملوا رأيه ونصحه — فيقول للرسول العظيم « بل أخرج إلينا أكفاءنا من بنى عمومتنا من قريش »

وأطلوا على الموقف أيها الزعماء الأجلاء ، وقد استعلنت عزة الحق بلسان النبى ، وصرخت كرامة الإيمان فى ندائه الأبى ، « أخرج إليهم يا على بن أبى طالب فعليك بالوليد ، وياحمزة بن عبد المطلب فعليك بعتبة ، وياحارث بن عبد المطلب فعليك بشيبة »

لحظات من الفتوة العربية فى إيمانها وكفرها ، إن ملأت النفوس هيبة من جلال الحق وخشوعا لسلطان العقيدة فى مشكر المؤمنين ، فمن الإنصاف أن نشيد بما نصبه فى مسمع الدهر من تخليد لرجولة هؤلاء العصبة المشركين

ولايطول ريث الفريقين حتى تخلص لهم عاقبة هذا الصراع : لقد انتصرت الدماء لجندها المؤمنين ، فما هى إلا لحظات حتى كانت دماء عتبة وأخيه شيبة وابنه الوليد تتدافع من صدورهم وجنوبهم ثارة دفاقة فى لجاج الثرى توشك — لو أذن لها بالإفصاح — أن تقول لتاريخ الإنسانية « أنا الثمن الطبيعى للحفاظ على وحدة الجماعة ، والفدية المتقبلة للابقاء على استمساك كلمة الأمة ، لا بأس أن يهلك أبناء ربيعة وتحيا كلمة قريش أبية كريمة »

وا أسفاه يا عتبة أنك خرجت من الدنيا كافرا لا يحل الترحم عليك « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » ولكن القدر الواضح فى خلقك من الرجولة ، والضوء الغالب على عملك من تقديس وحدة العشيرة ، والمثل السارى فى تاريخك من إصغار رأى الفرد فى سبيل الجماعة ، والأدب المتألق من سبقك — وإن أهدرت مشيئتك — إلى اقتداء شرف الأمة . كل ذلك يا عتبة بل بعض ذلك ورب الكعبة مواطن للقدوة تندب إليها أئمة الزمان المحترمين وتتمنى مجدع الأنف لو وجدت لها صدى فى نفوس زعماء القرن العشرين ، الذين أشقوا بتنا كرهم البلاد ، وأطمعوا شرة حلفائهم مصاير المحكومين

ألا فروا رأيكم ، يا زعماء مصر ، أين تقفون من بطولة هذا الزعيم من كفار بدر ، ولا روع عليكم أن تتخذوه قدوة ، وإن اتسنم من دونه بسمة الإيمان ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها — قيل : لا يبالى من أى وعاء خرجت

والفضل فضل وإن اختلفت الأيدى على تناوله ، والمثل الرفيع كذلك وإن خفت عن أهل الكفر إلى تداوله ، « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله »

عبد الحكيم عابدين

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر فى الباكستان

ثمن كل مجلد ثلاثون قرشا عدا أجرة البريد

والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة